الدورة التاسعة والعشرون – باريس – فرنسا

03- 07 ذي القعدة 1440هـ

الموافق 06 – 10 يوليو (تموز) 2019م

تحقيق مقصد الكرامة الإنسانية
مقاربة إسلامية مقاصدية

بقلم
أ.د/ جاسر عودة
عضو المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث

تحقيق مقصد الكرامة الإنسانية

مقاربة إسلامية مقاصدية

جاسر عودة

ملخص

هذه الورقة تعرض محاولة لمعالجة موضوع (الكرامة الإنسانية) كمقصد تسعى البشرية لتحقيقه عن طريق تصوره ضمن مقاربة حقوقية دستورية، ويسعى المسلمون للإسهام في هذا التحقيق عن طريق تصوره ضمن مقاربة إسلامية مقاصدية شاملة. وتعرض الورقة باختصار لإشكالات تشوب المقاربات الإسلامية الفكرية المعاصرة، ومنها المقاربة التخصصية، والمقاربة النقدية، والمقاربة الفقهية، والمقاربة المقاصدية، والمقاربة التجديدة. ثم تثنّى بنقد منهجي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام – للنظرية العلمانية السائدة في (الكرامة الإنسانية)، وما انبنى عليها من نظريات حقوقية معاصرة، ويتلخص النقد في أن النظريات العلمانية تختزل الكرامة في الحقوق، وتقتصر على مفهوم حد أدنى، ولا ترتبط بمسؤوليات وعقوبات محددة لانتهاكها، ولا تراعي حقوق الأجيال التالية وكرامتها داخل نفس المنظومة، ولا ترتبط بالإيمان بالله ومعايير تكريمه للإنسان. ثم نعرض باختصار لمنهجية مقاصدية شاملة لمقاربة مفهوم ومقصد الكرامة الإنسانية من خلال تحليل لما يتعلق بها من مقاصد ومفاهيم وفئات وسنن وقيم وحجج وأحكام من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم من خلال التعامل بهذه (الأصول المقاصدية) مع الظواهر الواقعية ذات العلاقة بهذا المفهوم الشامل للكرامة الإنسانة في عالمنا المعاصر، مثل: الإلحاد، والقتل، والحروب، والفقر، والاحتكار الاقتصادي والدوائي، والاستبداد السياسي، والتقنيات الحديثة ذات الآثار السلبية على كرامة الإنسان، وغيرها من الظواهر التي تتعلق كلها بالكرامة الإنسانية في مفهومها الإسلامي الشامل. وتفعيل الكرامة الإنسانية في المجتمعات الأوروبية خصوصاً لا يتم فقط عن طريق احترام البشر من المسلمين وغير المسلمين، ولكنه أساسًا لابد أن يكون بالإسهام في تحرير الإنسان - الأوروبي وغير الأوروبي - من تلك الظواهر السلبية التي تهين تلك الكرامة حسب التعريف الإسلامي الجامع.

إشكاليات المقاربات الإسلامية المعاصرة

شهد القرن الأخير – خاصة العقود الأخيرة- محاولات لبناء فكر إسلامي معاصر يتعامل مع ما استجد في دنيا الإنسان من المفاهيم المعاصرة وما يتعلق بها من نظم وأحكام، ورغم الكمّ من الأبحاث الجديدة التي عالجت مختلف المفاهيم السائدة ومنها مفهوم الكرامة الإنسانية، ورغم المنجزات الفكرية من كل أطياف الفكر الإنساني، والتي جعلت مفهوم الكرامة الإنسانية جزءًا متعارفًا عليه من منظومة الحقوق المعاصرة من المنطلق الإسلامي في مختلف المدارس أنحاء العالم، إلا أن الحاجة ماتزال ماسّة لمقاربة جديدة وشاملة نظرًا للملاحظات التالية على ما نراه من رصيد في مجال الدراسات الإسلامية في هذا الموضوع، والتي نسردها باقتضاب في هذا المقام:

- **أولًا**: المقاربات (التخصصية) للمفاهيم المركبة مثل مفهوم الكرامة الإنسانية باعتبارها جزءًا من تخصص أكاديمي كالحقوق أو الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة أو علم النفس، والمقاربة الحقوقية في حالة مفهوم (الكرامة الإنسانية) - قد عانت كلها من الأسس الفلسفية غير الإسلامية التي قامت عليها تلك العلوم في شكلها المعاصر. ثم إن محاولات (الأسلمة) للمفاهيم قد أدت في كثير من الأحيان لفكر تبريري يؤسلم جوانب شكلية دون عمق في مستوى إعادة الصياغة المطلوب لتلك المفاهيم والتخصصات، كالذي قدمه أطروحات (التمويل الإسلامي)، و(فكر الدولة الإسلامية الحديثة)، و(تقنين الشريعة)، و(الفن الإسلامي)، و(السياحة الإسلامية)، وغيرها من الأطروحات التي حملت شعارات الإسلام وفاتها كثير من مضامينه وأصوله المعرفية. وقد حدث نفس القصور في بعض مقاربات الأسلمة لمفهوم الكرامة بتبرير المنظومة الحقوقية شكلياً دون تحرير للمفهوم من خلال مصدر الوحي المعرفي من كتاب وسنة. ولكن التعامل القرآني مع المفاهيم يتجاوز التخصصات الوضعية أصلًا إلى مقاربة متعددة (أو متعدية) التخصصات تدور أساسًا حول علاقة المفهوم بتجلياته في عالم الظواهر، وكذلك نقد

الأسس الفلسفية الحقوقية التي قام عليها المفهوم من منطلق قرآني منهجي، كما سيأتي لاحقًا ببعض التفصيل.

- **ثانيًا**: المقاربات النقدية المعاصرة بنَت نتائجها على أصول المدارس النقدية المعاصرة ولم تنطلق من أصول قرآنية نقدية، وأبرز تلك المدارس النقدية اليوم هي مدرسة النقد الجذري على طريقة تيارات مابعد الحداثة، كتيار ما يسمى بالتاريخنية (والأصح: التأرخ)، وتيار الدراسات الألسنية المعاصرة، وتيار النسوية، وتيار ما بعد الاستشراق، وهي كلها تيارات تسود الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية اليوم. وكان تعامل تلك التيارات بشكل عام مع المصادر الأصلية في الإسلام من قرآن وسنة تعاملًا تفكيكيًا يفصل الدال عن المدلول ويعد الوحي – لا تفسيره – كمنتج ثقافي خاضع لصراع السلطة والمعرفة في تمثلات نصية، إلى آخر ما يدّعون. وبالتالي فقد اعتبر هذا التيار مفهوم الكرامة الإنساني العلماني كما تعرفه المواثيق الدولية متقدمًا عن نظيره القرآني الذي لا يعترف بعضهم حتى بوجوده، ورأى أصحاب ذلك المنهج التفكيكي أن المفهوم القرآني للكرامة إن وجد هو ابن زمانه ولا يرتقي لزماننا. وهناك مقاربات نقدية أخرى حاولت (إعادة الصياغة) بعد عملية التفكيك، وذلك عن طريق إحداث ما حسبوه نقلة معرفية في الفكر الإسلامي المعاصر عن طريق إعادة التأويل الجذري، إلا أن تلك المحاولات لم تفلح في تكامل الفلسفة المنظومية المعاصرة مع مصادر الإسلام الأصلية من أجل منهجية متكاملة لإعادة الصياغة المنشودة، وكان تعاملها من مصادر الإسلام النصية تعاملًا سطحيًا.
- **ثالثًا**: المقاربات الفقهية التقليدية لمفهوم الكرامة لم تفرق في أغلب التيارات بين (الفقه) و(تاريخ الفقه)، فاتخذت من الأفكار الموروثة في المذاهب المختلفة (حجة) إسلامية ذات مرجعية ذاتية، ولعل أوضح مثالين في هذا المقام هي اعتماد المقاربات السياسية المعاصرة على تراث (فقه السياسة الشرعية) في التعامل مع إشكالات الحقوق والواجبات

المتعلقة بالكرامة الإنسانية، واعتماد المقاربات الاقتصادية الإسلامية المعاصرة على التراث المذهبي من (فقه المعاملات المالية) في التعامل مع الجوانب الاقتصادية المتعلقة بالإنسان المعاصر – رغم أن السياق التاريخي في كلا الفقهين المذكورين قد اختلف كليًا وجزئيًا. وقد أدى هذا النهج إلى فكر يعيش في الماضي ويحاول أن ينظر إلى العالم من زاوية (الفقه المذهبي) التقليدية، وهي زاوية لا تتسع لاستيعاب أبعاد القضايا المتعلقة بالكرامة الإنسانية في الواقع المعاصر سياسياً واقتصادياً. وقد عانى الجانب الحقوقي كذلك من تعدي (الضوابط) الاحترازية عليه خوفًا من مآلات الحرية المطلقة، والإخفاق إذن في ضمان الحقوق الشرعية في إطار فقهي يوازن من المبادئ والضوابط.

- **رابعًا**: المقاربات (المقاصدية) المعاصرة شابها عدد من الإشكالات التي يضيق المقام بتحليلها تفصيلًا، كان على رأسها الجمود على نظرية المقاصد الضرورية الخمسة أو الستة رغم عدم كفايتها لصياغة أهداف تناسب تعقديات العصر في مختلف القضايا، نظرًا لعموميتها الشديدة وتولّدها أصلًا من منظومة الفقه التاريخي لا من منظومة المقاصد القرآنية، وبالتال فمفهوم (حفظ العرض) الذي تأوله بعض العلماء المعاصرين مكافئاً لمفهوم الكرامة الإنسانية لا يتسع لأبعاد التكريم الإنساني كما عرّفها القرآن الكريم، وأبقى البحث والفعل في دائرة محدودة من مفهوم (العرض) والأحكام المتعلقة به. ومن الإشكالات المنهجية كذلك في نظرية المقاصد التقليدية اعتبار (مكارم الأخلاق) من التحسينيات، رغم أهمية الأخلاق الأساسية في البحث المعاصر في مختلف المجالات خاصة مجال الكرامة الإنسانية، ومن الإشكالات المنهجية كذلك سوء استغلال البعض لمرونة وعمومية نظريات المقاصد التقليدية لدعم وتبرير واقع انحرف لطرف التشدد أو التسيّب، فتم إهدار الكرامة الإنسانية من قبل بعض المدعين باسم الشريعة ومقاصدها.

- **خامسًا**: المقاربات التجديدية في الفكر الإسلامي قدمت محاولات في دراسة الكرامة الإنسانية وما يتعلق بها من نظم (حقوق الإنسان) مثل الدراسات الفكرية الجديدة في المفاهيم، والقيم، والسنن الإلهية، وقد قُدمت أفكار جديدة في تلك الأبعاد، ولكنها نادرًا ما حاولت الوصول لأطر نظرية تركيبية بين بعضها البعض، أو بينها وبين واقع الإنسان المتمثل في ظواهر محلية أو عالمية لها أثر مباشر على كرامته.

ومن الإشكالات المنهجية المعاصرة أن المحاولات التجديدية في الفقه والفكر الإسلامي مازالت تقسّم مجالات الدراسة إلى (إسلامية) أو (شرعية)، و(عامة) أو (متخصصة)، ثم تعتمد الفلسفة الوضعية نفسها في مقاربات العلوم المختلفة خارج الدائرة (الشرعية)، أو على أحسن حال تتجاوز التقسيم العلماني المذكور ولكنها تحصر الإسلام في الأبعاد الروحية أو الأخلاقية المهنية أو الدراسات التاريخية أو الفقهية بالمعنى المذهبي.

وهناك محاولات أخرى جمعت بين الشخصيات لا الأفكار، فأقامت ندوات في تخصصات مختلفة ودعت إليها (علماء النصوص) وأغلبهم من الفقهاء التقليدين، و(علماء الواقع) وأغلبهم من أصحاب المقاربات الأخلاقية من منطلق علماني، ولكن هذه المحاولات فشلت في الوصول إلى لغة مشتركة للحوار بلْه الوصول إلى منهجية تكاملية بين المقاربتين: الفقهية التاريخية والأخلاقية العلمانية. والمطلوب هو منهجية إسلامية تركيبية تكاملية تعتمد على نصوص ومصادر الإسلام الأصيلة.

وقد ظهر في كل الدراسات التي أجملناها أعلاه ضعف منهجي عام في عدم إعطاء القرآن مكانته اللائقة به في مركزية التصور والتصرف من المنطلق الإسلامي، وبالتالي فأغلب الدراسات الإسلامية الفكرية المعاصرة بعيدة عن المضامين القرآنية المنهجية وصلتها بالقرآن صلة شكلية، وموضوع الكرامة الإنسانية مثال واضح على هذا الضعف، إذ أن أبعاده القرآنية متشعبة وشاملة، كما سيأتي.

نقد منهجي للنظرية العلمانية في الكرامة الإنسانية

ونقدم هنا باختصار حسب ما يتسع المقام نقدًا للنظرية العلمانية في الكرامة الإنسانية، وهو نقد لا ينكر المنجزات الفكرية والواقعية التي حققتها تلك النظرية في عصرنا، ومنظومة حقوق الإنسان المعاصرة المبنية عليها، ولكنه نقد منطلق من (المنهجية المقاصدية الشاملة) التي نعرض إطارها العام في المبحث التالي، والتي تأسست على مقاربة قرآنية لمقصد الكرامة الإنسانية في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما يتعلق بها من مقاصد ومفاهيم وسنن إلهية وفئات وقيم وأحكام. ويمكننا أن نجمل هذا النقد في النقاط الخمسة التالية:

- **أولًا**: مفهوم الكرامة الإنسانية العلماني مفهوم يختزل الكرامة في الحقوق، وهو بالتالي يقصر نطاقه على الدساتير والقوانين المحلية والدولية، ولا يمتد ليشمل ما وراء الجوانب الحقوقية للكرامة في مجالات السياسة والاقتصاد والصحة والبيئة والثقافة وغيرها – بل تدخل هذه الجوانب في النظرية العلمانية تحت ما يسمونه (نظرية الجيل الثالث في الحقوق) أو (الحقوق الخضراء)، وهي بالتالي جوانب غير معترف بها رسمياً ومتروكة لاجتهادات النظم التشريعية المحلية دون أن يكون لها أثر في تعريف الكرامة الإنسانية نفسها والمواثيق الحقوقية المترتبة عليها.

- **ثانيًا**: مفهوم الكرامة الإنسانية العلماني مفهوم حد أدنى، وهو بالتالي يركز على جانب الحفظ للإنسان من حيث الحدود الدنيا لحمايته من القتل والتعذيب وكافة الانتهاكات الأساسية، ولكنه لا يعتبر الحدود العليا في تنمية وتجميل وإثراء الحياة الإنسانية داخلة في الكرامة الإنسانية، فيعتبر مثلًا حماية الإنسان من القتل والتعذيب جزءًا من حماية كرامته، ولكنه يكتفي هنا بعدم الأذى، ولا يرقى لاعتبار مستوى صحته وعافيته وطعامه وشرابه وتعليمه وعقله ووعيه جزءًا من كرامته، بل يعتبرها جميعًا من (معايير التنمية) التي ترتبط بدورها بمنظومة اقتصادية معينة، لا بالكرامة الإنسانية مبدئيًا، وكذلك --كمثال

ثان- يعتبر أن القيود على اختيار الزوج أو الزوجة -خارج الأعراف الغربية على أي حال- متعارضة مع الكرامة الإنسانية كحد أدنى، ولكنه لا يرقى لاعتبار تيسير ودعم الزواج لمن يرغب لبناء أسر إنسانية فعالة وناجحة وبناء مجتمع ودولة - لا يعتبر هذا كله جزءًا من الكرامة الإنسانية، وكذلك على نفس المنهج في ضمان الحد الأدنى فقط في مقابل سائر المستويات العليا من الحاجات الإنسانية.

- **ثالثًا**: مفهوم الكرامة الإنسانية العلماني غير مرتبط بمسؤوليات وعقوبات محددة، وذلك أن انتهاك الكرامة الإنسانية في منظومة حقوق الإنسان الحالية لابد أن يمر على مجلس الأمن والمحاكم الدولية بكل ما تمثله هذه الهيئات من مصالح سياسية وتجارية وعنصرية وليست المصالح الإنسانية بشكل محايد، كما هو معروف وواضح لكل منصف، ولكن الشريعة الإسلامية ربطت انتهاكات الكرامة الإنسانية بمسؤوليات وعقوبات محددة تطبق على كل البشر دون مراعاة لحصانات سياسية أو قانونية ودون تمييز في العنصر أو الدين أو الجنسية، بل هابت الشريعة بالمواطنين - في كل نظام سياسي - أن يأخذوا على أيدي الحكام والأغنياء وأصحاب السلطان على أنواعهم لتحمل مسؤولياتهم، بل خصّت الشريعة في أحكامها وقواعدها هذه الفئات بمسؤوليات إضافية حسب السلطات والإمكانيات والموارد التي يتحكمون فيها والبشر الذين يخضعون لسلطاتهم.

- **رابعًا**: مفهوم الكرامة الإنسانية العلماني غير مرتبط بالأجيال التي لم تولد بعد بل تعتبر حقوق الأجيال التالية أيضًا من النظريات (التقدمية) التي لا تدخل في تعريف الكرامة الإنسانية في النظريات الحقوقية المعاصرة، ولكن الكرامة الإنسانية التي تتعلق بحقوق الأجيال التي تأتي بعدنا هي جزء أصيل من النظرية الإسلامية في القرآن الكريم (مثلًا: مفهوم الذين جاءوا من بعدهم، والتشريعات المتعلقة بالميراث، وغير ذلك).

- **خامسًا**: وأخيرًا وليس آخرًا، لا يتعلق مفهوم الكرامة الإنسانية العلماني بالإيمان بالله ولا يتأثر به زيادة ونقصانًا، ولا يميز المفهوم العلماني بين حرية الديانات والإيمان بالله فيدخل الدين كمكوّن من مكونات الكرامة الإنسانية في مفهوم الحرية فقط من باب حرية الديانات، وهذا على نقيض المفهوم القرآني الذي يضمن لبني آدم جميعًا قدرًا أدنى من التكريم الإلهي بما فيه من عدم الإكراه في الدين، ولكنه يتيح للإنسان أن يزداد تكريمًا باختياره وأفعاله عن طريق الازدياد في التقوى. (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). وهذا ما يفصله المبحث التالي في عرض مفهوم (الكرامة الإنسانية) من منطلق قرآني نبوي، وأصوله وتجلياته في الواقع.

نحو منهجية مقاصدية شاملة (مقصد الكرامة الإنسانية أنموذجًا)

المنهجية المقاصدية مقاربة جديدة تنطلق من البحث في مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام وصولًا إلى منهجية شاملة يمكن أن تُبنى عليها دراسات إسلامية معاصرة، وإننا إذا أردنا أن ندرس مقصد (الكرامة الإنسانية) دراسة شاملة حسب هذه المنهجية فيمكننا أن نجمل الخطوات التي يمر بها الباحث في دراسات الظواهر التي تتعلق بموضوع الكرامة الإنسانية في ما يلي:

أولًا: قراءة القرآن الكريم على هيئة (دورات تدبر) تتغيا الإجابة على عدد من الأسئلة المنهجية، وتتضح الإجابات كلما توالت دورات التدبر وزادت مخرجاتها وضوحًا.

ثانيًا: قراءة السنة النبوية – على صاحبها الصلاة والسلام- كبيان لمعنى القرآن يدور في أفلاكها ولا يتناقض معها على أي حال، وربط الأحاديث الثابتة بآيات الكتاب ثم بالإجابات على الأسئلة المنهجية.

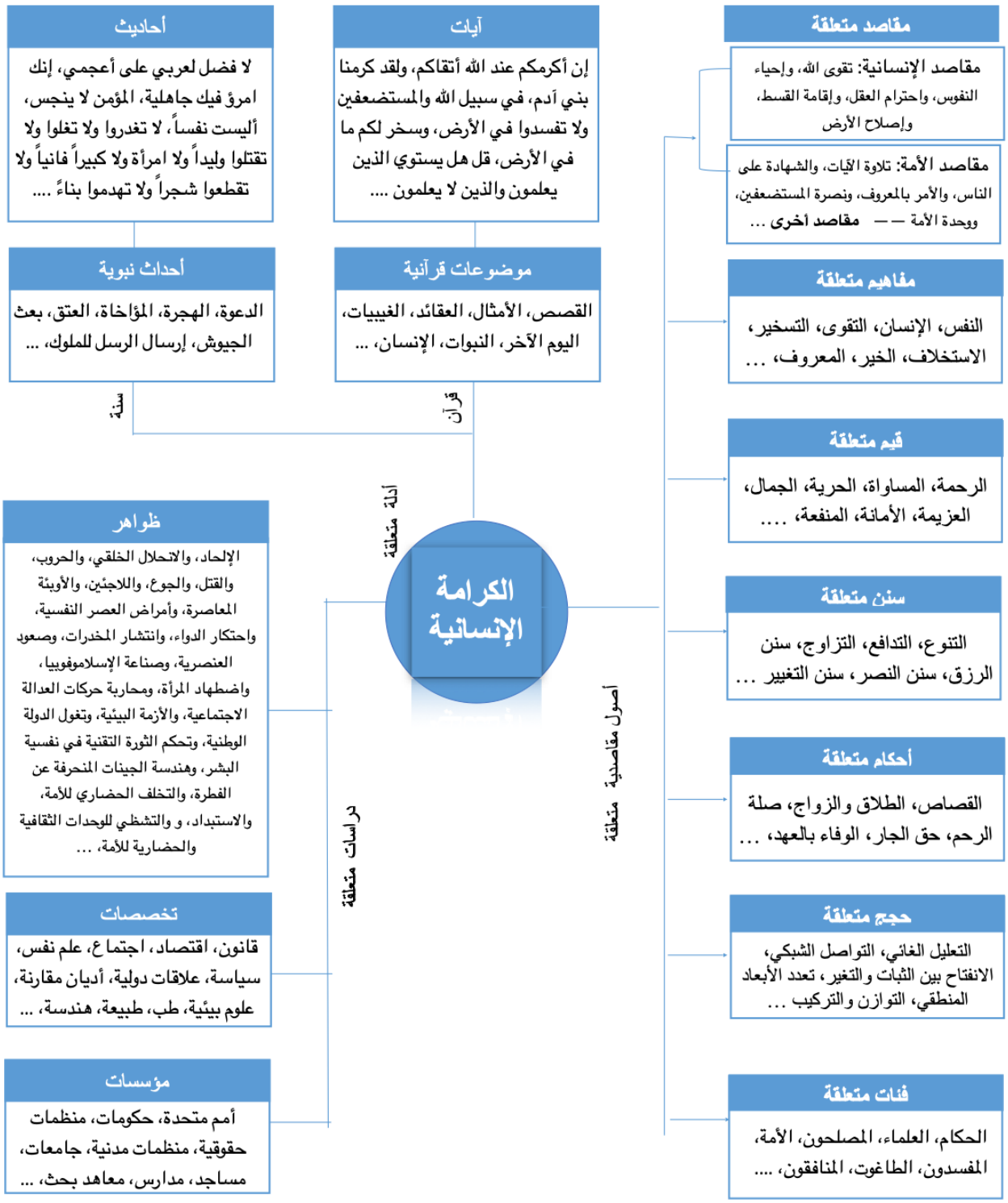
الكرامة الإنسانية
أدلة متعلقة
قرآن
آيات
إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولقد كرمنا بني آدم، في سبيل الله والمستضعفين ولا تفسدوا في الأرض، وسخر لكم ما في الأرض، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ....
موضوعات قرآنية
القصص، الأمثال، العقائد، الغيبيات، اليوم الآخر، النبوات، الإنسان، ...
سنة
أحاديث
لا فضل لعربي على أعجمي، إنك امرؤ فيك جاهلية، المؤمن لا ينجس، أليست نفساً، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً ....
أحداث نبوية
الدعوة، الهجرة، المؤاخاة، العتق، بعث الجيوش، إرسال الرسل للملوك، ...
دراسات متعلقة
ظواهر
الإلحاد، والانحلال الخلقي، والحروب، والقتل، والجوع، واللاجئين، والأوبئة المعاصرة، وأمراض العصر النفسية، واحتكار الدواء، وانتشار المخدرات، وصعود العنصرية، وصناعة الإسلاموفوبيا، واضطهاد المرأة، ومحاربة حركات العدالة الاجتماعية، والأزمة البيئية، وتغول الدولة الوطنية، وتحكم الثورة التقنية في نفسية البشر، وهندسة الجينات المنحرفة عن الفطرة، والتخلف الحضاري للأمة، والاستبداد، و والتشظي للوحدات الثقافية والحضارية للأمة، ...
تخصصات
قانون، اقتصاد، اجتماع، علم نفس، سياسة، علاقات دولية، أديان مقارنة، علوم بيئية، طب، طبيعة، هندسة، ...
مؤسسات
أمم متحدة، حكومات، منظمات حقوقية، منظمات مدنية، جامعات، مساجد، مدارس، معاهد بحث، ...
أصول مقاصدية متعلقة
مقاصد متعلقة
مقاصد الإنسانية: تقوى الله، وإحياء النفوس، واحترام العقل، وإقامة القسط، وإصلاح الأرض
مقاصد الأمة: تلاوة الآيات، والشهادة على الناس، والأمر بالمعروف، ونصرة المستضعفين، ووحدة الأمة — — مقاصد أخرى ...
مفاهيم متعلقة
النفس، الإنسان، التقوى، التسخير، الاستخلاف، الخير، المعروف، ...
قيم متعلقة
الرحمة، المساواة، الحرية، الجمال، العزيمة، الأمانة، المنفعة، ....
سنن متعلقة
التنوع، التدافع، التزاوج، سنن الرزق، سنن النصر، سنن التغيير ...
أحكام متعلقة
القصاص، الطلاق والزواج، صلة الرحم، حق الجار، الوفاء بالعهد، ...
حجج متعلقة
التعليل الغائي، التواصل الشبكي، الانفتاح بين الثبات والتغير، تعدد الأبعاد المنطقي، التوازن والتركيب ...
فئات متعلقة
الحكام، العلماء، المصلحون، الأمة، المفسدون، الطاغوت، المنافقون، ....

ثالثًا: هذه الأسئلة المنهجية السبعة تلخص وتركز بحثنا في ما يتعلق بالكرامة الإنسانية في الوحي الكريم: كيف تصاغ الأهداف في الوحي؟ كيف نعرّف عناصر البناء المعنوي والمادي؟ كيف صُنفت الفئات الفاعلة ذات العلاقة؟ كيف تُشرح آليات الحركة وقوانين التغيير؟ كيف يصاغ الحجاج العقلي؟ كيف نعرف القواعد الحاكمة للتصرفات الإنسانية؟ وهي الأسئلة - مع دورات التدبر - قد أوصلتنا نظريًا إلى ما ما سميناه (المقاصد المنهجية)، وهي: استهداف المقاصد، وتصحيح المفاهيم، وتصنيف الفئات، ومراعاة السنن الإلهية، والتأسيس بالقيم، وإقامة الحجج، والتزام الأحكام، وبالتالي بدأنا في دراسة علاقة هذه المقاصد المنهجية بمقصد الكرامة الإنسانية خصوصًا، وتولدت من المقاصد المنهجية أصولًا سبعة لما سميناه (الفقه المقاصدي) وهي: المقاصد، والمفاهيم، والفئات، والسنن، والقيم، والحجج، والأحكام - أي كل عناصر الدراسة المتعلقة بمقصد الكرامة الإنسانية.

رابعًا: وقد أنتج التساؤل عن المحاذير المنهجية في النص الكريم - مع دورات التدبر- التصنيف التالي للمنهجيات التي تسعى المنهجية المقاصدية لتجنبها: التقليد، والتجزيئ، والتأويل، والأسطورية، والمادية، والهجر للقرآن الكريم، نذكرها هنا كرؤوس أقلام ولكنها ضرورية لسلامة المقاربة المقاصدية منهجيًا حتى لا تقع في المآخذ التي انتقدناها آنفًا في تيارات الفكر المعاصر.

خامسًا: عادت دورات التدبر لتعميق التحليل لكل من الأصول السبعة المذكورة في القرآن والسنة وعلاقتها مع مقصد الكرامة الإنسانية قيد البحث، وقد أدت تلك الدراسة إلى تكوين شبكة مركبة من المعاني على الباحث أن يتجول بين خيوطها بغرض البحث المقاصدي في الظواهر المتعلقة بمقصد الكرامة الإنسانية والتخصصات والمؤسسات ذات العلاقة. الشكل التالي يعرض تصورًا عامًا للإطار البحثي.

تأسيس التصور والتصرف المقاصديين على دراسات الظواهر

الدراسات التي تتصور الإشكالات الواقعية وحلولها العملية من خلال تمثلاتها في ظواهر واقعية حريّ بها أن تتجاوز الإشكالات التي أجملناها آنفًا سواء في التصور العلماني للكرامة الإنسانية أو المقاربات الإسلامية المعاصرة لها. وتجاوز التخصصات التقليدية سواء في العلوم (الإسلامية) أو (العلمانية) يتيح اتساعًا في أفق المعالجة وتعددًا في تخصصات وأبعاد الحلول التي ترفع من مستوى الكرامة الإنسانية على الأرض وتسعى لتحقيق ذلك المقصد في الواقع المعيش. ونستأنس هنا بمنهج القرآن الكريم في التعامل مع الظواهر التي تناولها بالبيان وسنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم دليلان على رشد هذه المقاربة.

وإن التخصص في دراسات الظواهر – في نظري – هو مستقبل الدراسات الأكاديمية والبحثية والاستراتيجية بما فيها الدراسات الإسلامية، وهو المنهج الذي يخرج بالطالب والباحث من ضيق أفق التخصص في مجال معين له مراميه وحدوده الاقتصادية، إلى سعة النظر في دراسة ظاهرة أو مجموعة من الظواهر يقاربها الباحث أو الفاعل على الأرض من كل أبعاد المجالات المتعلقة بها. هذه المقاربة تتجاوز القصور التخصصي في معالجة القضايا العامة المركبة، وتحلّ إشكالية ضعف التكامل بين (علوم الشريعة) و(علوم الدنيا)، و(علماء النصوص) و (علماء الواقع)، و(البحث الأكاديمي) و (النشاط المدني)، و(المصالح الاقتصادية لسوق العمل) و(الحاجات الإنسانية للمجتمعات)، وغيرها من الثنائيات المعيقة لتحسين مستوى الكرامة الإنسانية في واقعنا المعاصر.

وهناك مستويات مختلفة من البحث من أجل الوصول إلى تحليل دقيق للظواهر الواقعية والتعامل معها. أول هذه المستويات وأعلاها والتي يقوم بها الباحث المؤهل لقراءة الوحي قراءته الخاصة حسب الخطوات الخمسة التي أجملناها آنفًا. هنا يهدف الباحث إلى الوصول إلى شبكة معاني خاصة بالبحث هي الظواهر ذات العلاقة بمقصد الكرامة الإنسانية (مكونة من مقاصد ومفاهيم

وفئات وسنن وقيم وحجج وأحكام) وهذه الشبكة هي جزء من شبكة المعاني القرآنية الكبرى، وهي الإطار النظري الذي سينطلق منه الباحث في هذا المستوى لإعادة صياغة الدراسات التي تتناول هذه الظواهر حتى يقدم دراسات جديدة من منطلق المنهجية المقاصدية لتحقيق مقصد الكرامة الإنسانية في صورته القرآنية الشاملة.

وهناك مستويات للبحث دون هذه المستوى تتلخص في تقسيم تلك المهمة البحثية المركبة إلى مهمات أصغر يقوم بها باحثون أكثر تخصصًا وبالتالي أضيق أفقًا، كالتركيز على المقاصد فقط من أجل إعادة صياغة أهداف البحث في الظاهرة قيد الدراسة أو التركيز على دراسة المفاهيم أو مفهوم واحد، والفئات أو فئة بعينها، أو القيم أو قيمة بعينها، وهكذا، ثم يتم التكامل بين هؤلاء الباحثين في إطار البحث الرئيس.

وهناك مرحلة في الخطة البحثية تتعلق بتفاعل الإطار البحثي (أي المقاصد والمفاهيم والفئات والسنن والقيم والحجج والأحكام المتعلقة بمقصد الكرامة الإنسانية) – بعد الوصول إليها – مع الأطر البحثية الموجودة على الساحة لدراسة نفس الظاهرة، سواء الذي ينطلق منها من الفكر الإسلامي التاريخي أو المعاصر، أو الذي ينطلق من المنطلقات العلمانية التي أجملنا الحديث عنها آنفًا. وحصيلة هذا التفاعل هو محاولة الوصول إلى لغة تجمع بين الأصالة دون قطع الصلة باللغة المعاصرة، وبين المعاصرة دون قطع الصلات بالمصطلحات العربية الأصيلة، وهذه اللغة المنشودة أضحت ضرورة إذ أنها ستشكل الإطار النظري للحلول المطروحة لدراسات الظواهر المختلفة من المنطلق الإسلامي المقاصدي.

وأخيرًا في الخطوات المقترحة للبحث، فإن الحصيلة المرجوة منه هي آليات واستراتجييات فردية ومجتمعية للتعامل مع الظاهرة قيد الدراسة وذلك بغرض الوصول إلى تفعيل المقاصد القرآنية المنشودة في الواقع المعاصر. وقد وصل البحث المقاصدي إلى هذه المقاصد المتعلقة بمقصد الكرامة الإنسانية على المستوى الإنساني من خلال تحليل شبكة المقاصد، ألا وهي: تقوى الله،

وإحياء النفوس، واحترام العقل، وإقامة القسط، وإصلاح الأرض. كما وصل البحث المقاصدي المقاصد إلى هذه المقاصد ذات العلاقة بمقصد الكرامة الإنسانية على مستوى الأمة من خلال تحليل شبكة المقاصد كذلك: تلاوة الآيات، والشهادة على الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المستضعفين، ووحدة الأمة، ومدى تحقق هذه المقاصد ومتعلقاتها في أرض الواقع هو معيار نجاح الإنسانية والأمة في تحقيق الكرامة الإنسانية.

وإنه بناء على استهداف المقاصد الإنسانية والأممية المذكورة أعلاه فقد برز عدد من الظواهر المعاصرة التي لابد من بحث أسبابها وأعراضها والعمل على وضع حلول لها بهدف تحقيق مقصد الكرامة الإنسانية من المنطلق الإسلامي الشامل على مستويات مختلفة محليًا وعالميًا، ألا وهي ظواهر: الإلحاد، والانحلال الخلقي، والحروب، والقتل، والجوع، واللاجئين، والأوبئة المعاصرة، وأمراض العصر النفسية، واحتكار الدواء، وانتشار المخدرات، والفقر، وصعود العنصرية، وصناعة الإسلاموفوبيا، واضطهاد المرأة، ومحاربة حركات العدالة الاجتماعية، والأزمة البيئية، وتغول الدولة الوطنية، وتحكم الثورة التقنية في نفسية البشر، وهندسة الجينات المنحرفة عن الفطرة، والتخلف الحضاري للأمة، والاستبداد في صور مختلفة شرقًا وغربًا، والتشظي للوحدات الثقافية والحضارية للأمة، وغيرها من الظواهر ذات العلاقة.

أمل في مستقبل أفضل للكرامة الإنسانية

من وراء هذه الظواهر – كما هو واضح بيّن – منظومة دولية للاقتصاد والسياسة والفكر والفن والإعلام وغيرها من مناحي النشاط الإنساني، منظومة تحتاج إلى إصلاح وترشيد شامل حتى ترتقي الإنسانية بمستوى الكرامة في عالمنا المعاصر، وهذا هو ما يمكن أن يسهم المسلمون فيه في عصرنا، فرغم وصول الأمة الإسلامية بشكل عام إلى مستويات متدنية في كل معايير الكرامة الإنسانية – علمانية كانت أم إسلامية – إلا أن الأمل يحدو الشرفاء أن ينهض شباب الأمة وشاباتها ليؤسسوا مستقبلًا جديدًا بناء على شمول رسالة الإسلام، إن شاء الله تعالى.

دور المسلمين في أوروبا من أجل كرامة الإنسان

وتفعيل الكرامة الإنسانية في المجتمعات الأوروبية خصوصاً لا يتم فقط عن طريق احترام البشر من المسلمين وغير المسلمين ومراعاة أواصر الصداقة والجيرة والقرابة، إلى آخره، ولكنه أساسًا لابد أن يكون بالإسهام في تحرير الإنسان - الأوروبي وغير الأوروبي - من عبادة غير الله، ومن الاستعباد المعاصر في أشكاله المختلفة على مستوى الأفراد والشعوب والفئات والعنصريات، ومن الظلم الاجتماعي والسياسي والأمني والغذائي والبيئي والدوائي وكافة أشكال الظلم في الواقع الأوروبي وهي كثيرة، وفي الواقع العالمي وهي أكثر، وفي تحرير المرأة - المسلمة وغير المسلمة -من أن يكون جسدها سلعة تباع وتشترى باسم التحرر أو باسم التنمية الاقتصادية، وفي المطالبة بالعمل للوصول إلى الحد الأعلى لا الأدني من مقتضيات تلك الكرامة الإنسانية فيما يمس كل جوانب الحياة الإنسانية، وكذلك احترام كرامة الإنسان من الأجيال التالية وتوريث كوكب الأرض لهم أقرب للصلاح والتوازن وأبعد عن الفساد والتدمير. وصدق الله تعالى إذ يقول في محكم التنزيل من سورة الإسراء: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا).